Coptology

محاضرات في اللاهوت العقيدي

الصفات الإلهية
ومعناها اللاهوتي

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٢٢

www.coptology.org

كل محاولة لضبط معاني الكلمات اللاهوتية التي نستخدمها هي بالضرورة محاولة لوضع الفكر المسيحي في مواجهة حقائق إلهية يمكن أن يخطئ العقل في إدراكها. ومراجعة ما لدينا هو مراجعة لتقويم اتجاه الحياة، ولضبط ما استقر عندنا من أفكار.

الله غير المنظور:

لعل العقل البشري لم يخطئ في إدراك عبارة مثلما أخطأ في استخدام كلمة "منظور"، و"غير منظور". المنظور الآن، بعد التطور العلمي الرهيب في القرن الأخير، أصبح صعب التحديد، فكل ما لدينا من إنجازات علمية وتطور مذهل، هو في الواقع قائم على إدراك علاقات وقوانين ليست منظورة، بمعنى أنها لا تراها العين. لم تكن الميكروبات منظورة حتى اختراع الميكروسكوب، ولذلك دخلت كأشياء يراها الإنسان في نهاية القرن التاسع عشر، وكان وجودها المدمر معروفاً ظاهريا فقط، ولكن وجودها المدمر أصبح ظاهرا جدا بدليل الصيدليات في كل مدينة في العالم.

وكانت المادة منظورة إلى عهد قريب، وكان عالم الأبعاد الثلاثة في هندسة اقليدس هو السائد في نهاية النصف الأول من القرن العشرين. وعندما دخلت الهندسة الفراغية والهندسة الفضائية، تحول خيال الإنسان إلى إدراك ما هو غير منظور. واقتراب الإنسان من إدراك حقيقة الكون كعلاقات، ومحاولة الإنسان للوصول إلى رموز ومعادلات تفسر كل شيء. وهذا التطور أدى إلى تصور المادة كطاقة، وإلى أن تصبح صورة العالم، صورة علاقات يدركها الإنسان على المستوى الفكري، أي غير المنظور.

لكن مع أننا قد اقتربنا أكثر من معنى غير المنظور، إلا أننا نجد أن وصف الله

على هذا النحو، مرَّ بتطور هام. ففي العهد القديم لا يوصف الله بأنه غير منظور، بل على العكس إن الله منظور: "رأيت الله وجها لوجه" (تكوين ٣٢: ٣٠). ومع أن هذه العبارة هي اختبار صوفي (سري)، إلا أنها ليست وصفا لاهوتيا عقائديا. حقيقي أن الله يراه الإنسان على نحو ما (خروج ٣: ٦ – قضاة ٦: ٢٢ – ١ ملوك ١٩: ١٣)، بل لقد سمح الله لموسى أن يراه وأيضا على نحو ما (خروج ٢٤: ٩ – ٣٣: ١١ – عدد ١٢: ٧)، وعلى نحو ما لا ندريه نحن، قيل لموسى: "لا تستطيع أن ترى وجهي لأنه لا يقدر إنسان أن يراني ويحسب في عداد الأحياء" (خروج ٣٣: ٢٠ النص العبراني)؛ لأن الإنسان لا يمكنه أن يرى الله ويحيا، فالرؤيا رهيبة جدا وتعرض الإنسان للدمار، ولذلك قال أشعياء عبارته المشهورة (أشعياء ٦: ٥)[١].

فالله يعطي الرؤيا، والله يعلن عن ذاته، وهذا هو اختبار البطاركة والأنبياء. إلا أن رؤية الله لا تجعل الله منظورا، ولذلك، النقاش الذي أثاره البعض حول اختلاف العهد القديم عن العهد الجديد في هذه النقطة بالذات هو بمثابة إهدار للوقت والجهد.

حقيقي أن العهد القديم لا يعرف عبارة "غير المنظور"، بينما التعبير يظهر في العهد الجديد (١ تيمو ١: ١٧ – ١ تيمو ٦: ١٥)، ومع ندرة التعبير، إلا أن النقطة الحاسمة ليست هي الخلاف حول التعبير، وإنما هي حول درجة الوعي، فالله غير منظور ومنظور في نفس الوقت. فالله يعلن عن ذاته، ويجعل ذاته منظورا، ولكن ذلك لا يجعل حقيقة الله معروفة أو يكشف كل شيء عن الله. ويعبر الفيلسوف اليهودي فيلون في مقالته المشهورة (خروج ابراهيم: ٧٥) عن ذلك ويقول: "الله غير منظور لأنه لا يريد أن يعلن ذاته لعيون الجسد، ربما لأنه لا يصح للمائتين أن يشاهدوا الأبدي، وربما لأن حواسنا لا تستطيع أن تحتمل الرؤيا". ومع ذلك يؤكد فيلون: "الله غير منظور ويمكن إدراكه فقط بالعقل Reason". (De Spec. Legi I:46).

---

(١) "فَقُلْت: «وَيْلٌ لِي! إِنِّي هَلَكْتُ لأَنِّي إِنْسَانٌ نَجِسُ الشَّفَتَيْنِ وَأَنَا سَاكِنٌ بَيْنَ شَعْبٍ نَجِسِ الشَّفَتَيْنِ لأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ رَأَتَا الْمَلِكَ رَبَّ الْجُنُودِ»".

ففي إطار التقليد اليهودي نفسه يوجد إدراك واضح إلى أن رؤية الله لا تعني معرفة الله كما هو، وأن رؤية الله لا تعني أننا أصبحنا نعرف كل شيء عن الله. ولذلك لا خلاف حول هذه النقطة. حقيقي أن العهد القديم لا يغوص في هذه النقطة على النحو الذي نراه بعد ذلك في العهد الجديد؛ لأنه يترك موضوع الله برمته إلى مرحلة كمال التدبير، وهو ما يجعل التمييز بين رؤية الله في العهد القديم، واعتبار الله غير منظور في العهد الجديد هو تأكيد على الحقائق التالية:

١- إن ظهورات الله في العهد القديم كانت متنوعة، ولذلك لم تكن هذه الظهورات هي بمثابة إعلان كامل على كل ما يخص الله.

٢- إن ظهور الله في العهد الجديد مؤكد، ولكن حتى وهو في الجسد يظل أيضا غير منظور بعيدا عن الإحاطة به وإدراكه بشكل كامل.

وكأن العهد الجديد وهو يدعم نفس الاتجاه اللاهوتي في العهد القديم، يؤكد بشكل قاطع، ليس فقط الوحدة في الإعلان، وإنما أن الاعلان عن الله هو موضوع الأبدية نفسه (يوحنا ١٧: ١-٣).

وفي العهد الجديد تعبير "غير المنظور" يختم قضية التجسد بشكل أساسي. فالابن المتجسد يوصف بأنه "صورة الله غير المنظور" (كولوسي ١: ١٥ - ٢كو ٤: ٤)، وهذا وصف مؤكّد لطبيعة الابن الإلهية. ولكن هذا الوصف يحمل بشكل قاطع أن الابن وهو في الجسد، يظل بشكل ما، غير منظور، غير مدرك ولا معروف، بسبب واحد وهو أنه إله من إله مولود من الآب قبل كل الدهور. ونلاحظ بشكل أساسي أن الحكمة هي صورة الله، وهي صورة غير منظورة (سفر الحكمة ٧: ٢٦)؛ لأن الحكمة هي قدرة الله، أو هي اللوغوس حسب التعبير الدقيق عند يوحنا، قد أُعلن (أُعلنت) في الجسد. المسيح حكمة الله كما يقول بولس، ولكن الحكمة هنا هي تدبير الله، وقدرته الفائقة التي يسوس بها الخليقة، ولذلك مجيء الحكمة في الجسد لخلاص الخليقة، هو عمل يتناسب مع دور ووظيفة الحكمة = اللوغوس في الذات الإلهية.

هذا الدور يخلق للإنسان القدرة على الاقتراب من الله؛ لأن الفرصة مهيأة من الحكمة. وتعبير "غير المنظور" تعبير أساسي لفهم علاقة الاتحاد التي أعطانا إياها المسيح، فهي اتحاد غير منظور بالله غير المنظور. الله يحل ويسكن فينا، ولكن علينا أن لا نطلب علاقة أو حتى مشاعر؛ لأن الله فوق الإدراك وهو بطبيعته غير مرئي.

الله وعدم الفساد:

يقول سفر الحكمة عن الله "روحك غير الفاسد هو في الكل" (١٢: ١) وغير الفاسد αφθαρσια تعبير يظهر مرة واحدة على الأقل في الكلام عن الله: "وأبدلوا مجد الله الغير الفاسد δαξαντουαφθαρτον بشبه صورة الإنسان الذي يفسد (رومية ١: ٢٣).

وعدم الفساد جاء إلى الخليقة الفاسدة، بمجيء المسيح بالجسد؛ لأن ظهور مخلصنا يسوع أبطل الموت وأنار الحياة وفقد البلى بالبشارة" (الترجمة القبطية تيمو ١: ١٠) وفقد البلي بمعنى أزال نهائيا الفساد ⲧⲙⲉⲧⲁⲧⲧⲁⲕⲟ.

الله يوصف على هذا النحو في الأدب اليوناني وفي الفلسفة، فالخليقة تعاني الفساد أي الانحلال الذي يدب في كيان الخليقة، ولكن الله ليس كذلك. ويعبر ابيقور عن ذلك بقوله: "الله هو عدم الفساد ..". (To Menoeceus: I 23).

ولكن اللاهوت المسيحي لم يقف عند حد الموافقة على تعبير نادر الاستعمال في العهد القديم، بل جعل عدم الفساد من هبات الله في المسيح يسوع للخليقة. ولذلك دم المسيح الذي به تحقق الفداء هو دم غير فاسد (١ بطرس ١: ١٨)، أي أنه ليس من رتبة الخليقة القابلة للانحلال، بل من رتبة الخليقة التي نالت من الله هبة عدم الفساد التي تعلنها كلمة الله غير الفانية (١ بطرس ١: ٢٣). هنا عدم الفناء، أو عدم الفساد، أو عدم الموت، هو وصف دقيق جدا للخلاص ولميراث الملكوت (١ بطرس ١: ٤).

ولذلك تقف كل قدرات الفلسفة اليونانية وإمكانياتها الفكرية عند هذه الحقيقة، فالله يعطي عدم الفساد بالكلمة، وبدم المسيح، وبالروح القدس، وينقل الإنسان إلى حياة عدم الفساد (١ بطرس ٣: ٤ – ١ كورنثوس ١٥: ٤٢، ٥٠، ٥٣) في ملكوت السموات.

الله الذي لا يموت:

الله وحده له عدم الموت (١ تيمو ٦: ١٦)، وهو مصدر الحياة (مزمور ٣٦: ١٠)، وهو السبب الأساسي الذي يجعل الكتاب المقدس يؤكد أن الله هو الذي يقيم الأموات (٢ كو ١: ٩)، فالله غير مائت αθανασια وهي صفة لا تعطى للإنسان إلا في حالةٍ واحدة، وهي حالة الهبة والعطية. والفرق بين الكتاب المقدس والفلسفة اليونانية هو فرق واضح، فالنفس ليست خالدة بطبيعتها، وإنما تنال الخلود كمنحة إلهية "هبة الله فهي الحياة الأبدية" (رومية ٦: ٢٣).

وعلى العكس من ذلك، يؤكد أفلاطون في محاوراته، لا سيما الحوار المشهور فيدرون أن النفس خالدة لا تموت، وهذا المحتوى الفلسفي لا أثر له في الكتاب المقدس؛ لأن النفس لا تموت بسبب عطية الحياة الأبدية، أما في الفلسفة، فالنفس خالدة بطبيعتها. هنا نرى أن صفات الله توهب للإنسان في الخلق والخلاص، وأن عدم الموت منحة المسيح للإنسانية. وهي منحة نحصل عليها مجاناً، وهذا يعني بشكل أساسي، أن الفهم الصحيح للصفات الإلهية يؤهّلنا للكلام بشكل صحيح عن الفداء كشركة في عطايا الله، وهذه العطايا هي الحياة الإلهية نفسها، لا سيما "عدم الموت".

لقد حاولنا الاقتراب من صفات الله، لا لكي ندرك بشكل أكاديمي موضوعا جامداً لا قيمة له، وإنما لكي تستعد أفكارنا لإدراك أن الإيمان ومعرفة صفات الله، يشرح لنا عمل المسيح مخلصنا، ويحدد لنا مسار علاقتنا بالله. ونستطيع أن ندرك هذا من الدراسة الدقيقة للقداسة بشكلٍ خاص.

الله قدوس:

على قدر ما يشغل تعبير "قدوس – مقدَّس – قدَّس" معظم صفحات العهد القديم، نجد أن هذا التعبير محفوظٌ للروح القدس بشكلٍ ظاهر جدا. وكأن قداسة الله المخيفة المرعبة في العهد القديم، صارت على صلة بالإنسان الخاطئ في العهد الجديد.

"الله قدوس"، وهذه عبارة هامة نالت الكثير من التشويه على أيدي الذين أعطوا القداسة تفسيرا غريبا جدا، يعني عدم الخطية.

"الله قدوس"، وهذا لا يعني أنه بلا خطية، فالكلمة "قدوس" لا توحي بالمرة بأي شكل من أشكال الصفات السلبية لله. ولكي ندرك معنى كلمة "قدوس"، علينا أن ندرس في دقة كلمات الأنبياء. يقول سفر هوشع عن الله: "لأَنِّي اللَّهُ لاَ إِنْسَانٌ الْقُدُّوسُ فِي وَسَطِكَ" (هو ١١: ٩). هنا القدوس تظهر بكل وضوح كَمن تعني الذي لا يمكن مَقارنته بأحد. وفي كل مرة يقول فيها الله: "انا الرب .. القدوس"، فهو يعني الذي لا يمكن أن تشبّه به أحد. والقدوس يرفض أن يعطي مجده لآخر (أشعياء ٤٢: ٨ – ٤٨: ١١)، لأنه قَدوس لا يمكن لإنسان أن يشبه الله بأحدٍ مهما كان. وهنا القداسة هي أن لا يكون مثل الله أحدٌ. ولكنها لا تتحول إِلَى صفة تِرهب الإنسان وتفزعه وتجعل شعوره بالعزلة يزداد أو يصبح ابتعاده عن الله أمرا حتميا. الأمر مختلف تماما؛ لأن قداسة الله تمتد إلى واقع الإنسان وتغيره: "كونوا قديسين لأني أنا قدوس". وعندما يصبغ الله على الإنسان قداسته، فإنه يحول الإنسان فعلاً وحقًا إلى صورة الله، ويصبح فريدا في مثاله لله.

ومع القداسة تظهر فكرة الغيرة .. الله غيور (خروج ٢٠: ٥). وغيرة الله تعني أنه لا يقبل أحدا آخر كشريك له في مجده. والغيرة كما لاحظ علماء العهد القديم في العصر الحديث، كلمة خاصة بعلاقة الزواج الخاصة بين الله والشعب. ولكنها بشكل أساسي تعني رفض الآلهة الوثنية كطرف دخيل يشوه اتحاد الله بالشعب. ولولا هذه العلاقة الوثيقة القائمة على العهد، ما دخلت كلمة "الغيرَة" مطلقًا. وشعور أشعياء بالنجاسة في حضرة

الله الذي يوصف بأنه "قدوس. قدوس. قدوس"، هو شعور صحيح؛ لأن قداسة الله تجعل الاقتراب منه مستحيلاً بدون نعمة إلهية خاصة. ولذلك صرخ أشعياء وقال: "الويل لي لأني هلكت، أو ضعت" (٦: ٣). وأمام قداسة الله يعرف الإنسان أنه ليس ندا أو مساويا.

ولكن الله ليس قدوسا إلى الحد الذي يفقد فيه علاقته بالخليقة، حتى وإن كانت خاطئة، وإنما قداسة الله تمد يدها إلى الخليقة لتتحول الخليقة إلى شيء فريد لا مثيل له، هكذا تتقدس العناصر: المياه، الخبز والخمر لكي تنال من قداسة الله ما تجعلها فريدة ومختلفة عن غيرها، حتى من العناصر التي تشاركها نفس الطبيعة. المياه المقدسة في المعمودية ليست مثل كل المياه؛ لأنها تنال نعمة خاصة، وتصبح مهيأة لقبول الروح القدس وهو يمنحها الحياة وتصبح حياة خالقة. القداسة هنا هي تفرُّد المياه واختلافها، وهي الصيغة الواضحة جدا للتقديس بالعزل والتخصيص؛ لأن المقدسات هي مخصصات، ولكن بشكلٍ فريد مختلف.

هذا التعريف للقداسة والتقديس، لا يختفي في العهد الجديد، بل يظهر بكل وضوح، ولكنه يتحول إلى الجانب الإيجابي والواضح في علاقة الله بالإنسان في المسيح يسوع، لأن الإنسان، إنما يأخذ من قداسة المسيح كل ما هو فريد وخاص.

في هذا المعنى "يتقدس اسمك" (متى ٦: ٩)، أي أن لا يكون اسم الله مثل أسماء غيره. والكنيسة هي "جماعة القديسين" (١كو ١: ٢ – رومية ١: ٧ – ٢كو ١: ١).

ولكن ليس جماعة خاصة وفريدة بل ارادة الله هي قداسة الكنيسة (١تس ٤: ٣)، وذلك بالاهتمام بمراعاة الفرق بين المسيح الرب وغيره، والعلاقة الخاصة التي تميزنا به (١بط ٣: ١٥).

التقديس جانب أساسيٌّ في علاقتنا بالله، لأنه عطية الإله القدوس للخليقة الساقطة، وهي عطية لا يمكن فهمها في ضوء عقيدة التوحيد السلبي، بل في ضوء عقيدة

التوحيد الايجابي أي التوحيد الذي يشرحه التثليث. فقداستنا عطيةَ الآب بالابن في الروح القدس. وهي عطية لا يمكن أن نشرحها على أساس وحدانية الله فقط.

نعود لكي نؤكد من جديد أن الإنسان لا يمكنه أن يفهم الخلق والخلاص إلا بدراسة جيدة وعميقة لصفات الله. لأن الله لم يعلن عن هذه الصفات لتكون مجرد حلية أو إطارا يراه الإنسان وينبهر به، وإنما أعلن عن هذه الصفات لكي يرى كيف يتعامل الإنسان معه، وكيف يؤسّس علاقة به. وعموما، الصفات الالهية هي قاعدة الشركة القوية بين الله والإنسان، وكل دَراسة جيدة لصفات الله هي دراسة للشركة نفسها.

+ + +